إحياء
Ihyae

دراسة

علم الأخلاق

وهيب أسطاسي

30 يوليوز 2019

جميع الحقوق محفوظة © 2019

مواضيع الدراسة:

مقدمة

موضوع علم الأخلاق

الغرض من علم الأخلاق

فكرة الشخصية (**La personnalité**)

مفهوم الشخصية / مظاهر الشخصية / مكونات الشخصية / عوامل تكوين الشخصية / انحلال الشخصية

المسؤولية الأخلاقية (**La responsabilité**)

شروط المسؤولية الأخلاقية / اختلاف مدى المسؤولية الأخلاقية / أنواع المسؤولية / نتيجة المسؤولية / أنواع الجزاء

الواجب (**Le devoir**)

الشعور بالواجب / معنى الواجب / اختلاف الواجبات / أداء الواجب / أقسام الواجب

الخير والشر (**Le Bonheur et le Mal**)

الخير الأسمى / مقياس الخير والشر / السعادة

مقدمة

من العلوم ما يبحث في الأمور الطبيعية الواقعية ، أي فيما هو كائن فعلاً مثل علوم الكيمياء ، والصوت ، والضوء ، والفلك وغيرها وهذه كلها تسمى علوماً طبيعية أو وصفية لأنها تقتصر على وصف ما هو كائن بالفعل في الطبيعة أو الواقع وهناك نوع آخر من العلوم يبحث في أعمال الإنسان وتصرفاته وعلاقة أفراده بعضهم ببعض ، وعلاقتهم بالزمان والمكان وتسمى علوماً اجتماعية أو أدبية كالتاريخ والجغرافية واللغات المختلفة ، وبعض العلوم الأدبية تبحث فيما ينبغي أن يكون لا فيما هو كائن فعلاً ، وعلم الأخلاق هو أحد هذه العلوم ، فهو لا يقف عند وصف سلوك الإنسان وأعماله كما يصف العالم النباتي الشجر وأجزاءه من فروع وغصون بل يبحث عن أعمال الإنسان من حيث ما يجب أن تكون عليه ويقرر هل كانت الأفعال التي صدرت عنه خيراً أم شراً ، وهل تعين على إسعاد الناس ، وتدنيهم من نيل غاياتهم، أو تبعدهم عنها ، إن علم الأخلاق ، كما يبحث في أفعال الناس وتصرفاتهم و ما يجب أن تكون عليه ، يبحث كذلك في الغايات التي يتوجه الناس إليها ويجعلونها نصب أعينهم في كل ما يفعلون ، فهو علم يوضح معنى الخير والشر ويبين ما تنبغي أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم لبعض ، ويشرح الغاية التي يجب ان يقصدها الناس في أعمالهم، وينير السبيل لعمل ما ينبغي.

فعلم الأخلاق إذن يبحث في أعمال الناس وتصرفاتهم من حيث هي خير أو شر ، أو هو العلم الذي يبحث في غايات الحياة التي ينبغي أن يقصدها الناس في أعمالهم أو يمكن أن نقول بتعريف آخر أن علم الأخلاق

هو العلم الذي يبحث في سلوك الإنسان من حيث ما يجب أن يكون عليه، وبعبارة موجزة ، علم الأخلاق هو علم الواجب.

موضوع علم الأخلاق

لا شك أن موضوع علم الأخلاق هو الإنسان نفسه، من حيث هو عاقل حر الإرادة والاختيار، تصدر عنه أعمال بإرادته تجعل سلوكه خيراً أو شراً.

ويمكن أن نلخص موضوع علم الأخلاق فيما يلي:

ا- الأعمال الإرادية الصادرة عن عمد واختيار، لعلم صاحبها وقت عملها ماذا يعمل، سواء أكانت تلك الأفعال خيراً أم شراً.

2 - الأعمال الشبيهة بالإرادية وهي التي تصدر من الإنسان لا عن إرادة حرة كاملة ، ولكن يمكنه العمل على تجنب وقوعها عندما يكون مريداً مختاراً ، أما الأعمال التي تصدر من المرء من غير إرادة وشعور ، أو التي لا يمكنه تجنبها في حالة الاختيار فليست من موضوع علم الأخلاق في شيء.

الغرض من علم الأخلاق:

ليس في مقدور علم الأخلاق أن يجعل كل إنسان صالحاً ، فهو لا يفيدنا إذا لم تكن لنا إرادة تدفعنا إلى أن نأتمر بأوامره وننتهي بنواهيه ، وكثيراً ما يكون الإنسان صالحاً دون أن يكون قد درس علم الأخلاق دراسة منظمة. كذلك قد يكون المرء نجاراً أو طاهياً دون أن يتعلم النجارة أو الطهي، ولكن لا شك أنه إذا درسها يكون أقدر في عمله ممن لم يدرسها، وعلى أي حال فإن معرفتنا بالشيء وأصوله وقواعده ينير لنا الطريق. وقديماً قال سقراط «أن المعرفة هي الفضيلة» ، وعلى هذا ، فالإلمام بعلم الأخلاق يضيء لنا السبيل إلى حل المشكلات اليومية المتعلقة بسلوكنا. ولا شك أن مشكلاتنا كثيرة وغالباً ما نقع في حيرة بإزاء إيجاد الحلول لهذه المشكلات ، فعالم الأخلاق يعيننا على أن نهتدي إلى الحل وعلى اختيار الطريق الذي يرضي الضمير والعدالة ، كما يوضح لنا الطريق الواجب اتباعه فلا نندفع وراء غرائزنا وأهوائنا ، وإنما نعمل على ضبطها وتهذيبها حتى نحقق الخير والسعادة لأنفسنا. وتدريب الإنسان على عمل الخير وتحقيقه لا شك أنه يعمل على تقوية الإرادة ، فتكون لنا قوة تجعلنا نثبت على الخير والحق ، وحينما يفعل الإنسان الخير وهو خبير به مدرك لقيمته ، فإن هذا لا شك أفضل وأسمى ممن يعمله وهو جاهل به لا يدرك قيمته أو غايته أو مقاصده .

فكرة الشخصية (La personnalité)

مفهوم الشخصية:

في الواقع، إن كلمة شخصية تطلق على معنيين مختلفين، ولذلك يجب أن نحدد أولاً المعنى الذي نريده. فهل نقصد بالشخصية مجموعة الصفات الجسمية والعقلية والخلقية فقد تسأل عن شخص تعرفه ، وتريد أن تصفه لتعطي للسامع فكرة واضحة عن شخصيته تطابق الحقيقة تمام المطابقة، فتقول إنه طويل نحيل أبيض البشرة مرسل الشعر متوسط السن باسم الثغر ذكي الفؤاد حاضر البديهة سريع الخاطر نافذ البصر أمين صادق شريف عادل طاهر القلب ، كريم يصل الأرحام ، يحب الاجتماع و يكره العزلة ، هذه الصفات الجسمية والعقلية والنفسية التي حددت ها معالم صديقك وقدمت عنه صورة لحقيقته هي ما تسمى بالشخصية، ولكل فرد شخصيته، أي مجموعة معينة من الصفات الجسمية والنفسية تحدد معالمه وكيانه. هذا هو المعنى الأول للشخصية، وأما المعنى الثاني فنقصد به البروز أو الامتياز أو الظهور فنقول بأن فلاناً له شخصيته، بمعنى أنه يتمتع بمكانة بارزة وسط زملائه أو بين المجتمع الذي يعيش فيه، وهناك شخصيات بارزة لامعة في العلم أو السياسة أو الرياضة أو أي ميدان من ميادين المجتمع.

أما الذين لا يتمتعون بهذه المكانة البارزة أو الذين لا تلمع شخصياتهم في أي ناحية من نواحي التفوق الاجتماعي فهؤلاء لا شخصية لهم، على أن هذا المفهوم الأخير للشخصية، الشخصية من ناحية القوة

والضعف، البروز أو الانطفاء، هذا مجال ضيق يبحث فيه علم النفس، وبذلك يكون المعنى الأول للشخصية وهو مجموعة الصفات الجسمية والنفسية هو مفهوم الشخصية الذي نهدف إليه حينما ندرس الشخصية في علم الأخلاق.

مظاهر الشخصية:

كيف نحكم على شخصية الإنسان؟ هل نحكم على الشخصية من السلوك الظاهري للفرد؟ هل نحكم عليه من أعماله وتصرفاته وخلقه؟ هل نحكم عليه من أدائه ومعاملاته للغير؟ لعل الاتجاه السائد عند الناس أنهم يحكمون على شخصية الإنسان من تصرفاته وخلقه، فإذا عرفنا أن فلانا بخيل، كثير الشح، فإننا نستطيع أن نتنبأ بأنه لا يكرم ضيفه، ولا يحسن إلى فقير ، ولا يبذل من ماله للجمعيات الخيرية . هذا هو المعيار الذي يقيم عليه الناس حكمهم من ناحية تحديد مظاهر الشخصية، وبالرغم من أن هذا الاتجاه هو السائد على أن العلماء من قديم أرادوا أن ينظموا الحلق الشخصي في تصنيف، والتصنيف يقتضي كشف نوع من المميزات الأساسية التي ترتكز عليها الأنماط المختلفة للشخصية؛ وأوضح صورة للتصنيف، هو تقسيم أنماط الشخصية بحسب الأمزجة وهي المزاج الدموي، والصفراوي، والسوداوي، والبلغمي. فصاحب المزاج الدموي يكون قوي الجسم سليم البنية، أبيض البشرة ومشرباً بحمرة، سريع التأثر، كثير التقلب، سريع الانفعال، قوي الخاطر، وصاحب المزاج الصفراوي يكون شاحب اللون، ذا شعر أسود يميل إلى السمرة، نشيطاً، مثابراً، عنيداً ثابت المبدأ، وصاحب المزاج

السوداوي يكون ضئيل الجسم، ضعيفاً، كثير التخيل والتفكير، لا يثق كثيرة بالناس، ويتعرض سريعاً للأمراض. وصاحب المزاج البلغمي يكون شاحب اللون، كثير الخمول، بطيء الحركة، مشتت الذهن سريع النسيان، قليل الاعتماد على النفس . وقد أضيف حديثاً إلى هذه الأمزجة الأربعة المعروفة من قديم ، مزاج خامس هو المزاج العصبي ، وصاحبه يكون بخيلا كثير الضحك، سريع التقلب والتغير ، عرضة للاضطرابات العصبية ، وينشأ المزاج الدموي من زيادة الدم ، والصفراوي من زيادة إفراز الكبد للصفراء ، والسوداوي من زيادة إفراز الطحال ، والبلغمي من زيادة إفراز البلغم الناشئ من أحد الأخلاط الأربعة التي تكون الطبيعة الإنسانية وهي البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة ، والعصبي من توتر الأعصاب وهياجها ، أو زيادة السائل العصبي.

وتقسيم الناس أو تقسيم شخصياتهم طبقاً لأمزجتهم على هذا النحو، لا يستند إلى أساس علمي كبير، ومع أن هذا التصنيف شائع ذائع غير أننا لا نستطيع أن نعتمد عليه اعتماداً كلياً أو نأخذ به كقاعدة عامة.

مكونات الشخصية:

ما هي العوامل التي تتدخل في تكوين شخصية كل منا؟ في الواقع ترجع هذه العوامل الى أسباب فطرية وأسباب مكتسبة. أما الأسباب الفطرية فيقصد بها الاستعدادات الموروثة التي تحدد طبيعة كل شخص كالطول والقصر والقوة البدنية وحيوية الجسم ، والميل إلى بعض الصفات

العقلية والخلقية ، كالاستعداد للتفكير الرياضي أو الميل إلى فن من الفنون كالموسيقى أو الرسم أو النحت أو التصوير وغير ذلك. أما العوامل المكتسبة فهي ترجع إلى البيئة التي تنشأ فيها ، والتعليم ، والتجارب الشخصية ، ولا نستطيع أن نحدد بالضبط أثر كل من هذه العوامل بالنسبة إلى الآخر في تكوين الشخصية فهي تتداخل مع بعض ويكمل كل منها الآخر فتتعاون العوامل الفطرية والمكتسبة على تكوين الشخصية.

عوامل تكوين الشخصية:

يمكن أن نحصر أهم العوامل الفطرية والمكتسبة التي تساعد على تكوين الشخصية وهي:

1- البيئة:

ونقصد بالبيئة المجتمع الذي يعيش فيه الفرد ويستمد منه حاجاته المعيشية ووسائل إشباعه، فهو في حاجة إلى الطعام وإلى المسكن والملبس وإلى الزواج والتناسل، والظهور والرياسة وإلى إشباع رغبة نفسه في البحث والاطلاع وإلى تجنب الأخطار ومغالبة الصعاب وكل ذلك لحفظ الحياة . وحصول الفرد على هذه الرغبات ليس بالأمر السهل الميسور ، وإنما لا بد له أن يكافح من أجل الرزق ويستمر في كفاحه وصراعه مع المجتمع وقد يوفق في إجابة مطالبه ورغباته وقد تبوء محاولاته بالفشل فيحقد على المجتمع وينطوي على نفسه ويكره الناس ، غير أن الطبيعة الاجتماعية تغلب عليه فيخرج من عزلته ويعاود الرجوع إلى الحياة الاجتماعية ويستأنف صراعه وكفاحه من جديد ، و يحاول أن يوفق بين

رغباته وظروف المجتمع ، ومن هذه الصلة التي يلائم فيها بين نفسه والمجتمع ، يخرج الإنسان مطبوعاً بطابع خاص هو ما يعبر عنه بالشخصية بعد أن تتشكل في البيئة التي يعيش فيها.

2- طبيعة الجسم:

ولطبيعة الجسم أثر في تكوين الشخصية، ذلك أن قوام الإنسان وشكله يؤثران في صلته بالناس، وفي صلة الناس به ، فالطول يكسب صاحبه هيبة وسلطاناً ، فتشبع حاجته إلى الظهور والرياسة ، وترتاح نفسه إلى ذلك ، فيصبح بشوشاً سمحاً رحب الصدر ، بينما القصير يضطر إلى الانقياد لغيره ، ويحاول أن ينفذ أغراضه بطرق معوجة فينشأ ماكراً مخادعاً ، ولا يمكن أن ننكر بأن للقوة البدنية وصحة الجسم ، وفيض الحيوية والنشاط، أثراً في تكوين الشخصيات القوية . وقد ثبت علمياً أن للغدد الصماء أثراً في تكوين الشخصية ، فإذا زاد إفراز « الأدرينالين » ، أصبح الشخص سريع التهيج والانفعال ،بينما نشاط الغدة الدرقية يؤدي إلى القوة والشجاعة والاحتمال والنشاط.

3- القدرات العقلية:

والذكاء أو بلادة الذهن يجددان كثيراً من الشخصية ، فالأبله لا يقدر الظروف ويتصرف تصرفاً معوجاً غير لائق مع الذين يحتك بهم أو يتعامل معهم ، فيغضب الناس ويثير سخطهم عليه واحتقارهم له ، بينما الذكي يتعامل مع الناس بكياسة ولباقة ، ويستطيع أن يقدر الظروف ويتكيف مع

كل الأوضاع ، فيكسب الناس ويكسب نفسه ويسيطر على المواقف ويكون سيد نفسه.

4- المنزل:

وللبيئة المنزلية أثر لا ينكر في تكوين شخصية الفرد، والمقصود بالمنزل هنا معاملة الأبوين للطفل وصلة إخوته به ونوع العلاقة التي تربطه بأبويه وأخوته هل هي علاقة محبة ولين أم هي علاقة نفور وكراهية، هل يعامله أبواه بالسياسة والرفق أم يعاملانه بالضرب والعنف، كل ذلك يؤدي إلى تكييف شخصية الفرد حتى الكبير.

وحدة الشخصية:

هذه العوامل التي تحدثنا عنها والتي تساعد على تكوين الشخصية لا يعمل كل منها على حدة ، وإنما تعمل جميعاً في وحدة مترابطة متماسكة ، فهي كل لا يتجزأ ، فتخرج منه شخصية الفرد ، ولذلك كانت طبيعة الإنسان واحدة ، وهذا ما يفسر وحدة عوامل تكوين الشخصية لأنه لو كانت العوامل منفصلة متفرقة لا تجمعها وحدة واحدة فمعنى هذا أن شخصية الإنسان تختلف أو تتغير من آن لآخر ومن لحظة إلى أخرى ، وهذا الكلام لا يتفق مع المنطق ولا يتفق مع الواقع، لأن الذي نشاهده في الواقع أن أعمال الإنسان لا تتغير ، وطبيعته بالأمس هي طبيعته اليوم، وفي هذا أكبر دليل على وحدة الشخصية . كما أن هذه الشخصية الواحدة أو وحدة الشخصية تشيع وتستمر مع الزمان بحيث تكون شخصية المرء هي هي

بعد عدة سنوات وتسمى هذه الوحدة الزمانية
L’identité personnelle .

وإذا كان حقاً أن ظروف البيئة تعدل من الشخصية فهي لا تغير معالمها واتجاهاتها الرئيسية والطابع الغالب المميز لها ، وربما هذا الثبات في الشخصية يرجع إلى عاملين هما الذاكرة والعادة ، وهذا العاملان هما اللذان يربطان بين مقومات الشخصية فيخرجان لنا هذه الوحدة المنسقة . ومع ذلك فالشخصية تتغير مع السن ، فهناك لحظات زمانية معينة تغير من ملامح الشخصية وبعض اتجاهاتها ، فلا يمكن أن نقول بأن شخصية الكهل هي هي أيام الشباب أو الطفولة وليس الرجل في خلقه أيام الشباب مثل ما كان أيام الطفولة ، وإن كانت فترة الشباب ما هي إلا امتدادا لفترة الطفولة . ومعنى هذا أن التغير في الشخصية إذا طرأ فلا بد أن يحدث هذا التغير بالتدريج ، ومهما يكن من أمر فإن وحدة الشخصية تحتفظ بكيانها وتظهر بوضوح حينما نرى الشخص بنفسه يميز شخصيته بقوله « أنا » .

انحلال الشخصية:

الأصل أن تكون الشخصية موحدة ثابتة . ولكن قد تنحل الشخصية وتذهب وحدتها المميزة ويظهر فيها شخصيتان مختلفتان كل الاختلاف، ويعد هذا مرضاً من أمراض الشخصية، فيظهر الإنسان بشخصيتين متعارضتين وينسى في حاله كل ما يعرفه عن شخصيته في حالة أخرى، وقد ينسى اسمه وأصدقاءه وعمله، ويتخذ اسماً جديداً وأصدقاء جدداً، ثم يعود بعد فترة طويلة أو قصيرة إلى شخصيته الأولى، دون أن يذكر لنا شيئا

عن شخصيته الثانية، هذا الازدواج في الشخصية هو حالة من حالات انحلال الشخصية ولعل قصة الدكتور « جيكل » و مستر « هايد » أوضح مثل عن الرجل ذي الشخصيتين.

وهناك أسباب كثيرة تؤدي إلى انحلال الشخصية منها الانغماس الشديد في شرب الخمر، إذ يتصرف السكير تصرفات شاذة حتى إذا عاد إلى وعيه ويقظته وذهب عنه تأثير الخمر عاد إلى حالة الجد الأولى ، كذلك للانفعالات الشديدة والصدمات النفسية أثر في انقسام الشخصية ، وتجد هذا واضحاً عند المرضى بالهستيريا إذ يظهر عندهم هذا الانقسام في الشخصية.

المسؤولية الأخلاقية (La responsabilité):

إذا أحرق فلاح محصول أرض عدوه انتقاماً منه فإنه يكون قد فعل ذلك باختياره وإرادته الحرة، وبعد تدبير له، فعله وهو عالم ما يلحق عدوه من أذى، وما قد يصيبه هو من عقاب. وإذا أنقذ رجل صديقاً له من الغرق فإنه يكون قد فعل ذلك قصد محض إرادته وحريته، فكل من الضمير والعقل السليم، وقانون الدولة يقضي بأن يحاسب كل من هذين على عمله أمام سلطة عليا تحكم له أو عليه.

فاضطرار الإنسان إلى أن يقدم حساباً عن أعماله التي يأتيها بإرادته واختياره ، وإلى أن يتحمل عواقبها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، هذا ما نسميه بالتبعة الأخلاقية أو المسؤولية الأخلاقية، أما الأعمال التي ليس

في طاقة الإنسان التحرز منها ، والتي غلب فيها على أمره ، فإنه لا يسأل عنها ، كأعمال المجنون والمغمى عليه، و كأعمال المكره، فمن أمسك بيد شخص آخر واضطره لارتكاب جريمة على الرغم منه، ولم يدع له سبيلاً للمقاومة، لم يكن مرتكب الجريمة مسؤولاً، وإنما المسؤول عن الجريمة من أكرهه أو أجبره على هذا العمل فما دام هذا الإنسان لم يدخل إرادته أو حريته في ارتكاب الجريمة فلا يجوز أن تقع عليه تبعة المسؤولية وقد نشأت مسؤولية الإنسان عن أعماله لأنه مخلوق عاقل يتمتع بنعمة العقل كما يتمتع بالحرية والإرادة والاختيار وبالضمير الحي، ومن كانت عليه واجبات يشعر بها ويعرفها، ويستطيع أن يؤديها. فالعقل يمكنه من أن يميز بين الخير والشر، وحرية إرادته تمكنه من أن تختار بينهما، وضميره يدله على الطريق الذي يجب أن يسلكه، فالتمتع بنعم العقل والحرية والضمير، والشعور بالواجب، وإدراك المرء لها إدراكاً كاملاً يستتبع أن يكون مسؤولاً عن كل عمل يعمله، وأن يتحمل نتائجه خيراً كانت أو شراً.

شروط المسؤولية الأخلاقية:

للتبعة الأخلاقية شروط إذا توفرت في المرء حقت مؤاخذته على عمله وأول هذه الشروط:

1- القدرة على التمييز بين الخير والشر تمييزاً واضحاً:

الشعور الكامل بما يجب أن يعمل ، فلا يلام مثلاً الطفل الصغير حين يمسك بفرخ صغير وخنقه كما لا يلام الرضيع إذا بكى وأسهر أمه الليالي

الطوال ، والرجل الذي فقد قواه العقلية لا يؤاخذ إذا اعتدى على إنسان أو سلك سلوكاً شاذاً أو مشيناً ، ذلك لأن كل هؤلاء ليس عندهم القدرة على التمييز بين الخير والشر.

2- العلم:

لا يلام إنسان جاهل على عمل شيء أتاه أو عن جريمة ارتكبها ما دام يجهل مغبة هذا العمل ، فأكلة لحوم البشر لا يؤاخذون على ما يعملون لأنهم لا يعرفون أن عملهم جريمة أخلاقية.

والطبيب إذا وصف دواء للمريض ثم أعطى عامل الصيدلية للمريض دواء آخر تناوله المريض فمات في الحال فالمسؤول هنا هو عامل الصيدلية ، ولكنه جاهل العمل الذي أقدم عليه وهو إعطاء دواء للمريض غير الدواء الذي وصفه الطبيب في التذكرة.

3- الإرادة:

المسؤولية توجد في ركاب الإرادة ، فمتى وجدت الإرادة فلا يمكن أن يعفى الإنسان من المسؤولية ، أما الإنسان الذي يرتكب فعلاً خطأ بغير إرادته ، أو بإيعاز من شخص آخر أملى عليه إرادته ، فلا يمكن أن يكون هذا الإنسان مسؤولا ؛ مثال ذلك أحد المشعوذين أو الدجالين الذين يدعون العلم بالطب ومحتالون على الناس الأبرياء ، هذا المحتال يوعز إلى إنسان ساذج طيب عن طريق الإيحاء أو التنويم المغناطيسي يوحي إليه أن يرتكب جريمة سرقة فيقدم هذا الإنسان الطيب على هذا الفعل الشرير .

من المسؤول عن هذه الجريمة أمام القانون ، بطبيعة الحال المسؤول الأول هو الرجل المحتال ، أما الإنسان الطيب فهو بريء تماماً لأنه لم يفعل هذا

بإرادته وإنما بإرادة المحتال المتسلطة عليه.

4- النية والقصد:

وإذا رأيت إنساناً بائساً تبدو عليه علامات الحاجة والعوز ثم أخذتك الشفقة به فأخرجت من جيبك بعضاً من النقود وأعطيته إياها، ثم بعد فترة من الوقت فوجئت بأن هذا البائس قد أنفق النقود في رذيلة من الرذائل. من المسؤول عن ارتكابه ما ارتكبه؟ بالطبع أنت تقصد من إحسانك أن تشفق عليه، فأعطيته النقود ليستفيد بها لا ليفعل فعلاً شريراً أو ليضر نفسه، إذن المسؤولية هنا تقع على عاتق البائس لأنه هو الذي أساء التصرف وأنت المفروض أنك لا تتوفر فيك أي نية سيئة أو قصد غير شريف فأعطيته النقود كإحسان يعود عليه بالنفع.

اختلاف مدى المسؤولية الأخلاقية:

تختلف المسؤولية باختلاف الأفراد وملابسات العمل ، فالأحوال التي فيها يشق على الإنسان التمييز بين الخير والشر ، أو تكون حريته مقيدة إلى حد قريب أو بعيد ، أو علمه مها غير كاف ، أو إرادته مشلولة بسبب ما ، تخفف من مقدار التبعة التي تقع عليه بمقدار تمييزه أو حريته أو علمه وجهله ، فمدى مسؤولية المرء في عمل ما يختلف إذن حسب ما لديه من

مقدار الحرية والاختيار ، ومن العلم والتفطن، ومن مدى تمييزه للخير والشر وشعوره بالواجب.

أنواع المسؤولية:

المسؤولية نوعان: مسؤولية أخلاقية أو أدبية ومسؤولية قانونية، فإن كانت السلطة التي تحاسب الإنسان على عمله هي ضميره وحده، فالمسؤولية أخلاقية، وإن كانت المحكمة والقضاء، فالمسؤولية قانونية.

وتختلف المسؤولية الأخلاقية عن القانونية في أمور عدة:

ا- الأولى أوسع دائرة من الأخرى وأشمل. فهناك كثير من الأفعال يقوم بها الإنسان ويحاسبه عليها ضميره، ولكن القانون لا يتعرض لها بعقاب كالتقصير في تقديم المعونة المحتاج، وعدم اغاثة الملهوف، وفقدان الرحمة بالناس.

2- والمسؤولية الأخلاقية تعني بنية المرء وقصده، فتسأل الإنسان عن نياته التي في أعماق قلبه ولو لم يصدر عنها عمل، وتكل مكافأته على نياته الحسنة ومعاقبته على نياته السيئة إلى الله وإلى ضميره.

3- كذلك تختلف المسؤولية الأخلاقية عن القانونية من حيث أن الأولى تشمل الحسنات، فمن أحسن جازاه ضميره خيراً أما القانون فلا مجازي أحداً على خير أتاه.

4- والمسؤولية الأخلاقية تسمو على المسؤولية القانونية سمو القانون الأخلاقي على القانون الوضعي. فالقانون الوضعي يحتم عليك أن تدفع ما

عليك من الدين كاملاً والقانون الأخلاقي يدعو الدائن إلى أن يحاسنك فيه بأن يؤجل لك ميعاد الدفع.

نتيجة المسؤولية:

تقتضي المسؤولية أن يتحمل الإنسان عواقب أعماله، فإذا كانت أعماله خيرة فلا بد أن ينال الجزاء الحسن، وإذا كانت أعماله شريرة فإن جزاءه يكون من جنس أعماله، ويقصد بالجزاء جملة ما يلاقيه الإنسان من ثواب وعقاب .والثواب والعقاب نتيجة لازمة لتحمل المرء تبعة عمله.

أنواع الجزاء:

والجزاء أربعة أنواع: طبيعي، وسياسي، واجتماعي، وديني.

1 – الجزاء الطبيعي:

ويشمل الجزاء الطبيعي ما يجره انتهاك القوانين الطبيعية من آلام للجسم أو العقل وما يعقبه اتباعها من استمتاع بالصحة والسعادة، كمن يأكل الفاكهة الفجة، والخضر غير النظيفة أو السمك الذي يحمل جراثيم التيفود ومن يستحم في ماء الترع والمصارف الموبوءة بجراثيم البلهارسيا، ومن يفرط في السهر والبذخ، ومن يخالط مريضاً بمرض معد من غير أن يحتفظ ويحتاط، أو من يستسلم للغضب والحقد والانتقام..

2 – الجزاء السياسي:

يتمثل في الآلام التي يجرها انتهاك حرمة قانون البلاد ولوائحها كالسجن والأشغال الشاقة والتغريم لمن يلجأ إلى السرقة أو يمتنع عن دفع الضرائب، ولحسن السمعة والتمتع بالحرية ، والنجاح في العمل، لمن يحرص على قوانين البلاد ويلتزم حدودها.

3 – الجزاء الاجتماعي:

يتوقف الجزاء الاجتماعي على الرأي العام وعلى العرف ، فالرأي العام يقدر الفضل ومدح الفضيلة ويمجد التضحية والكرم والشجاعة والحق والتمسك بالمبادئ السلمية وأداء الأعمال بإتقان و إحسان ، في حين أنه يحتقر الرذيلة : من جبن وإحجام عن إعانة المحتاج وبخل بالمال على ما يفيد الجماعة ويخفف ما يحيق بهم من بؤس.

4 – الجزاء الديني:

رضا الله سبحانه وتعالى ودخول جنته لمن أطاع وعمل صالحاً، وغضبه ودخول جحيمه لمن خالف وأساء، وهذا النوع من الجزاء مفروض على سائر العباد . وواضح أن هذه الجزاءات الأربعة تمثل جانبي الخير والشر ، فالذي يفعل الخير ، فجزاؤه أن يتمتع براحة ضميره ، ويظفر باغتباط نفساني ، أما الذي يفعل الشر فيعيش في ألم وحسرة فضلاً عن أنه لا يحس بسعادة أو ارتياح أو راحة ضمير.

الواجب (Le devoir)

الشعور بالواجب:

رغب فتى في الذهاب إلى دار الخيالة (السينما) حيث تعرض رواية يهمه أن يراها ولكن أجر الدخول لم يكن مكتملاً معه ، واتفق أن أبصر على مكتب والده ورقة بخمسة دراهم ، فهمَّ بأخذها ، ولكنه لم يلبث أن تردد ، مع أنه لم يكن على مرأى من أحد ، فقد أدرك بداهة أن أخذ ما ليس له عمل غير صالح ، وشعر بقوة أدبية في نفسه تحتم عليه أن يكف يده عن هذا العمل.

تعلق فتى بحب فتاة وأغرم بها وذات يوم التقى بها في وحدة خالية، وحدثه شيطان الجنس أن يسيء إليها، وفي الوقت الذي صور له الشيطان التصورات الشريرة شعر بقوة شديدة تنهره وتمنعه من الزلل وشعر بصوت ضميره يؤنبه على تهوره فأحجم عن الخطيئة وشعر بقوة أدبية تحتم عليه أن يكف عن عمل هذا الشر.

كل إنسان يسمع عن الواجب ، ويشعر شعوراً خفياً بأن الواجب يفرض عليه أن يتوخى سبيل الخير ، ويتجنب طريق الشر ، والإنسان دائماً في كل أفعاله يجد نفسه بين اثنين : فإما أن يسلك الطريق الصالح فيصيب الخير ، وإما أن يتبع هواه ويسلك الطريق الآخر فيضل ويغوى ، ثم يشعر في قرارة نفسه أنه كان يجب عليه أن يختار غير ما اختار ، فالشعور بالواجب هو شعور الإنسان بميل في نفسه يضطره إلى اختيار العمل الذي يحض عليه الواجب، وليس هذا العمل اضطرارياً وإنما يفعله الإنسان بمحض إرادته

وحريته،
أو بمعنى أصح ليس هذا الاضطرار صادراً عن سلطة خارجة عن المرء بل إنه ليصدر عن ذات نفسه ، و المرء يخضع له بإرادته واختياره.

معنى الواجب:

الواجب هو كل عمل يؤديه الإنسان مهما كلفه أداؤه من مشقة أو جهد أو تعب ، والإنسان الذي يفعل الواجب لا يتوقع نتيجة أو منفعة ولا يرتقب خيراً يعود عليه ، وإنما كل ما في الأمر أنه يحس بأنه استجاب لصوت ضميره وللقانون الأخلاقي . وحياة الإنسان ما هي إلا مجموعة من الواجبات ، فإذا رأيت شخصا محتاجاً ذليلاً وكان معك فضل من المال ، وجب عليك الصدقة ، وإذا كلفك رئيسك بعمل من الأعمال ، تعين عليك أن تؤدي هذا العمل بعناية وإتقان . ولو كان لك حق الانتخاب ، وجب عليك أن تعطي صوتك لمن يرتاح إليه ضميرك وعقلك ، وإذا دعا داعي الوطن وكنت قادراً وجب عليك أن تلبي نداء الواجب وتذهب للدفاع عن وطنك .

إذا عرضت لك كل هذه الأعمال وسارعت إلى أدائها غير منتظرٍ مصلحة أو منفعة ، فقد أديت هذه الاعمال وغيرها لأنك شعرت بأن ضميرك راضٍ عن هذا الوضع ، فإنك في هذه الحالة قد فعلت الواجب.

اختلاف الواجبات:

الواجب من حيث هو السلوك الأخلاقي الصحيح واحد عند جميع الناس، ولكن أشكال هذا السلوك تتغير، بمعنى أن الأعمال تختلف بالنسبة

لاختلاف الناس وبالنسبة لتنوع مراكزهم وطبيعة أعمالهم في الحياة ، وقد اقتضت ظروف الحياة وتطورها أن يقسم العمل بين الناس وأن ينشأ ما يسميه « دور كيم » بتقسيم العمل Division_du_travail ، فكل إنسان له وظيفة تتفق مع قدراته و استعداده الشخصي ، ويقتضي الواجب والضمير الأخلاقي أن يخلص كل إنسان لهذا العمل أو تلك الوظيفة المكلف بها ، وسواء أكان هذا العمل صغيراً أم كبيراً ، سواء أكان انجازه سهلاً أم صعباً ، مهما يكن الأمر يجب على كل إنسان أن يؤدي عمله بإتقان وعلى الوجه الصحيح ولا يستصغرن امرؤ نوع العمل الذي يقوم به ، ولا يستصغرن أحد من الناس ما يجب عليه ، فكثيراً ما تتوقف كبار الأمور على صغارها ، فمثلاً لا يصح أن نعد عمل الكناس في الشوارع والأزقة واجباً تافهاً صغيراً، فعليه تتوقف حياة كثير من الناس وحسن صحتهم ، وإن كسر قطعة صغيرة من سفينة قد يؤدي إلى إغراقها، وفي الأسرة تختلف الواجبات باختلاف الأفراد؛ فعلى الأب واجبات من حيث هو رب الأسرة ومن حيث هو زوج ، وعلى الأم واجبات من حيث هي زوجة وربة البيت ، وكذلك الأبناء ، على كل ابن واجب معين ، وبهذه الكيفية يحدث التعاون والتماسك بين أفراد الأسرة الواحدة .

وفي المدرسة، على كل طالب واجبات من يتعود عليها ويحسن أداءها يعتاد نفس هذا السلوك في المستقبل لأن المدرسة ما هي إلا مجتمع صغير، وحينما يؤدي كل فرد واجبه في المجتمع مهما كان ضئيلاً بهذه الكيفية يتعاون أفراد المجتمع على تبادل الخدمات والمصالح وتتحقق المصلحة العامة من تعاون الأفراد داخل المجتمع.

أداء الواجب:

يقصد بأداء الواجب أن يسير الإنسان في سلوكه وتصرفاته، وكل ما يعمل ويفكر، بحسب ما يقتضيه القانون الأخلاقي العام، فيصدر في كل أفعاله عن وحي ضميره مسترشداً بعقله وتفكيره، وموجهاً إرادته على الدوام نحو الخير، دون أن يكون مدفوعاً أو مجبراً بقوة خارجة عنه.

ومن الناس من يشعر بأن أداء الواجب سهل عليه ، لا يجد فيه مشقة أو تعباً ، فهو لا يتردد فيه ، ولا يحجم عنه ، إذا دعا داعيه ، وهؤلاء هم أصحاب الضمائر الحية والأخلاق الطيبة والمثل العليا ، ولكن جمهرة الناس يرون غير ذلك ، فالواجب شاق عليهم فقد يكون الإنسان مثلاً منهمكاً في لعب يحبه ويميل إليه ، ثم يجيء وقت عمله ، فيضطر على كره منه ، إلى ترك اللعب والتوجه نحو العمل ، وقد يطلب إليك الشهادة في حادثة ما ، فتضطر أن تقرر الواقع مع أن هذا ليس في مصلحة صديقك الذي تحبه ، وقد يجد القاضي نفسه مضطراً إلى الحكم على صديقه أو قريبه إذا ثبت أنه مذنب ، فيقضي واجب العدالة على الرغم من تألمه ، وهكذا فالواجب شاق الأداء إذن للأسباب الأتية:

1- لأنه كثيرا ما يكون نقيض رغبات المرء وأهوائه وعكس ميوله ومصلحته الخاصة .
2- لأنه يجشم جهداً في التنفيذ ومصابرة في العمل، واحتمالاً لما يحرمه المرء مما يرغب ويشتهي.
3- يتطلب شيئاً غير قليل من الشجاعة الأدبية ومواجهة الخصوم.

4-لأنه قد يعرض للتفدية بالكثير من المال والجهد والوقت حفظاً للكرامة وحباً في الحق

أقسام الواجب:

التقسيم الحديث الذي يجري عليه أكثر الناس الآن إنما يقوم على أساس من تناط بهم الواجبات، فالأقسام ثلاثة:

1. واجبات شخصية، وهي واجبات المرء نحو نفسه .
2. واجبات اجتماعية، وهي واجبات المرء نحو المجتمع.
3. واجبات دينية ، هي واجبات المرء نحو الخالق سبحانه وتعالى.

وهذه الواجبات كلها مرتبطة بعضها ببعض، فأداء الواجبات الدينية يشمل كثيراً من الواجبات الاجتماعية والشخصية. ولا تخرج الواجبات الشخصية عن أن تكون كذلك واجبات اجتماعية، فمثلاً إهمال الإنسان لصحته الجسمية يجعله عضواً أشل قليل الفائدة للمجتمع، عاجزاً عن القيام ببعض الواجبات الاجتماعية كالدفاع عن الوطن وقت الحروب. كذلك إهمال المرء تثقيف عقله يعين على شيوع الجهل وانتشار الجرائم في البلاد، فتقف عن الترقي وتأخذ في التدهور والانحطاط.

الواجبات الشخصية:

يقصد بالواجبات الشخصية، ما يجب على الفرد لنفسه، وهي كثيرة متنوعة، لو عنى المرء بها حق العناية لاستمتع بقسط كبير من السعادة، ولتهيأ لأن يكون عضواً صالحاً من أعضاء المجتمع الذي يعيش فيه، يسعد

نفسه ويسعد به سائر الأعضاء .والواجبات الشخصية أولى الواجبات بالعناية والاهتمام، فإنها أنصف الواجبات بالفرد وحياته وسعادته. وواجبات المرء لنفسه نوعان: واجبات لجسمه وواجبات لعقله.

ا- واجبات المرء نحو جسمه:

إن أول واجب على المرء لنفسه هو لا شك محافظته على حياته، ثم محافظته على صحته بأن يصونها عن كل ما يضعفها، ويعمل على تحسينها وإصلاحها إن كانت بحاجة إلى إصلاح، فالتفريط في ذلك انتحار بطيء؛ ولا شك أن العناية بالصحة واجب خلقي فالصحة هي الشرط الأول لقيام الإنسان بالفضيلة والواجب.

2 - واجبات المرء نحو عقله:

لحياة الإنسان العقلية ثلاث نواح يتصل بعضها ببعض كل الاتصال وهي:

(أ) الناحية الوجدانية وهي التي يستشعر بها الإنسان اللذة والألم . .

(ب) الناحية الإرادية وهي التي تتجلى في عزم الإنسان على عمل شيء أو الكف عنه.

(ج) ناحية الإدراك والمعرفة وهي التي يدرك بها الإنسان ويعرف ما يحيط به. .

أما من الناحية الوجدانية فمن ألزم الواجبات علينا أن نرقب أنفسنا ونضبط انفعالاتنا المتضاربة، فالغضب الشديد يشل تفكير الإنسان، ويؤثر في

الجسم تأثيراً مضراً، أما من الناحية الإرادية فمن أولى الواجبات على المرء نحو نفسه أن يعمل على ترقية إرادته وتقويتها وتوجيهها إلى فعل الخير والصواب.

أما واجبات الإنسان نحو الناحية الإدراكية من عقله فلها شأن وهذه الناحية لا تقل خطراً عن الناحيتين السابقتين وهي تتجلى في معرفة الإنسان بالأشياء والظواهر المختلفة التي تحيط به، ومن أهم واجبات الإنسان نحو عقله وإدراكه في التعليم والتزود بالمعرفة والتشبع بالثقافات المختلفة حتى يصل الإنسان إلى الحقائق الكاملة.

الواجبات الاجتماعية:

يقصد بها تلك الواجبات التي يلتزم الإنسان أداءها للمجتمع الذي هو أحد أفراده أي لأسرته، ومدرسته، ووطنه، ثم للإنسانية جمعاء.

ا- واجبات الإنسان لأسرته:

وهي تتمثل في التعاون بين الزوج والزوجة وبين الأب والأبناء وإعداد الأبناء والبنات لواجباتهم بالتربية الصحيحة والتعاون على ما فيه مصلحة أعضائها جميعاً، كما أن على الأبناء واجبات نحو الوالدين تتلخص في المحبة والطاعة والاحترام وعرفان الجميل كذلك يجب على الأبناء أن يتعاونوا مع بعضهم البعض بكل محبة ووئام.

ب – واجبات الإنسان لوطنه:

ووطن المرء هو دولته التي ينتسب إليها، ويسميها وطنه لما يشعر بأنها بلاد أجداده الذين رووها بدمائهم وبعرق جباههم فهو مدين لوطنه بكل شيء، وأهم الواجبات الملتزم بها نحو هذا الوطن هي الدفاع عن الوطن ضد كل عدو وضد كل غاصب، وكذلك أداء الفرد لواجباته اليومية ثم تشجيع المصنوعات الوطنية والحاصلات البلدية وتفضيلها على غيرها ما أمكن.

الواجبات الدينية:

تقوم واجبات الإنسان الدينية على أساس العلاقة بين الله وعباده، فالله خلق الإنسان، ووهبه الحياة في هذا العالم، وحفظها عليه طول عمره المقدر له، فكلنا إذن مدين للخالق بحياته في كل لحظة من لحظات الزمن، فعلينا إذن الواجبات التي تقتضيها علاقة المخلوق بالخالق الذي أوجده، من خضوع وطاعة وشكر ورضا، والله سبحانه وتعالى هو المتفضل علينا بكل شيء ننعم به في هذه الحياة، مادياً كان أو أدبياً، وهو الذي سيثيبنا على ما نكسب من عمل صالح فيفيض علينا الهناءة والسعادة الأدبية، فواجب علينا إذن بإزاء الخالق:

(1)أن نحبه (2) ونشكره (3) ونعترف له بالجميل (4) ونخلص له في كل ما نعمل.

ويتجلى قيامنا بهذه الواجبات الله سبحانه وتعالى في أمرين:

ا- في سلوكنا مع الناس ومع أنفسنا.

2- في قيامنا بعبادة الله وتمجيده .

الخير والشر (Le Bonheur et le Mal)

قد نقول في معرض حكمنا على الأشياء بأن هذا حسن وذاك سيء، أو هذا طيب وذاك خبيث، أو هذا السلوك محمود أو مذموم، وهذا العمل خير أو شر، وفلان قد أحسن أو أساء، فما معنى الحسن والطيبة، والخير؟ وما معنى السوء والخبث والشر؟ متى أسمي العمل خيراً ومتى أسميه شراً؟

لقد اختلف علماء الأخلاق في مدلولات هذه الألفاظ اختلافاً كبيراً،

حتى إننا لا نجد تعريفاً واحداً للخير والشر توافق عليه جمهرتهم، ولكن على الرغم من اختلاف المفكرين فإنه من الممكن تبين المقصود بها بشكل عام نفهمه. فمثلاً التبرع بالمال للأسر المنكوبة أو تقديم أي مساعدة للمحتاجين أو المساهمة في أي عمل خيري كل هذا عمل صالح، لأنه يعين على إسعاد طبقة كبيرة من أبناء المجتمع وجعلها نافعة صالحة. فإذن يمكن أن نقول بأن الخير هو كل عمل كان موضع الثناء والاستحسان، أو كل عمل يقضي به الواجب ويؤدي إلى إسعاد الناس وهو كل ما كان ممدوحاً في ذاته. هذا هو معنى الخير بوجه عام، والخير نوعان:

1- خير مطلق (أو خير في ذاته)

2- خير أخلاقي (أو خير أدبي)

فمثلاً هبْ أن رجلاً سمع بوقوع جريمة فأسرع إلى تبليغ الشرطة ونبه المسؤولين عن الشخص الذي سترتكب ضده الجريمة حتى يمنعوا وقوعها، هذا ما نسميه بالخير المطلق أو الخير في ذاته، ذلك لأن فاعل الخير لا يهدف إلى غاية أو نفع ولا يتوقع مالاً أو شهرة من وراء عمله الخير، وإنما يفعل هذا حباً في أداء الواجب وإرضاء الضمير، وهذا العمل في الوقت ذاته يعد خيراً أخلاقياً، أما إذا حدث طمعاً في مال أو قضاء لمأرب شخصي، أو جلباً لأي منفعة فهو خير في ذاته وليس خيراً أخلاقياً. فالخير في ذاته هو أي عمل صالح من غير نظر إلى نية الفاعل، وإرادته، والباعث إليه. والخير الأخلاقي هو كل عمل صالح يعمله المرء برضاه واختياره غير مكره عليه، وغير طامع في لذة شخصية، أو منفعة معينة، وإنما يعمله إرضاء للضمير والواجب والقانون الأخلاقي.

الخير الأسمى:

لكل امرئ منا أغراض وغايات يسعى إلى تحقيقها، وليست غايات كل الناس واحدة، بل هي متعددة متباينة، بعضها قريب المنال، وبعضها بعيد يستلزم تحقيقه جهداً موصولاً وزمناً طويلاً. فالطالب غايته النجاح في الامتحان والحصول على الشهادات العالية، وهذا قائد غايته نشوب الحرب لينال في ميادينها المجد والفخار، وذلك سياسي يشتهي الحكم والسيطرة حتى يحقق لبلاده ما ينوبه من إصلاح ومجد. وهكذا نجد أن كل

واحد من هؤلاء له غاية يجتهد في تحقيقها، وإذا نحن نظرنا في هذه الغايات ودققنا النظر والبحث لوجدنا أن هذه الغايات لم يطلبها الناس لذاتها وإنما لأنها وسيلة لتحقيق غايات أخرى أبعد منها.

وإذا ساءلت نفسك عن غايتك التي ترمي إليها؟ أهي الحصول على شهادة البكالوريا والالتحاق بالجامعة، حتى تنال شهادة عليا ثم تتخرج كطبيب ناجح ثم تصبح مديراً لمستشفى، ثم يلمع اسمك في الدوائر الطبية العالمية، ثم تصل إلى علاج ناجع للخلاص من الأمراض المستعصية، ثم تتحدث عنك المحافل الدولية كطبيب مخترع عظيم؟ ولكن هل هذه هي سعادتك أو غايتك النهائية؟ أليس لك بعد ذلك غاية؟ ألا تطمع في الثراء والمتعة، ولكن هل الثراء والمتعة هما غايتك الأخيرة؟ - قد تقول أن غايتك هي سعادتك الشخصية، أو سعادة المجتمع الذي تعيش فيه، أو خير الناس جميعاً، فالسعادة في نظر كثيرين من الناس هي غاية نهائية أو هي غاية الغايات إذ لا غاية بعدها.

فالغاية التي لا غاية بعدها، تعرف بالغاية النهائية، أو الخير الأسمى، فإذا تعينت هذه الغاية، أو الغايات من الحياة، وجب على الناس أن يوجهوا سلوكهم وكل جهودهم نحوها، ويتخذوها معياراً يقدرون به أعمالهم، فكل عمل يقربهم من هذه الغاية يكون خيراً، وكل عمل يبعدهم عنها يعد شراً.

مقياس الخير والشر:

الحكم على شيء ما بأنه طويل أو قصير، عال أو منخفض، زائد أو ناقص، يقتضي وجود معيار أو مقياس، يكون أساساً للحكم عليه بالطول أو القصر، بالعلو أو الانخفاض، بالزيادة أو النقصان فاللتر، والمتر، والأقة، والفدان، وغيرها مقاييس اتخذها الإنسان لتعيين مقادير الأشياء المختلفة.

والحكم على شيء بأنه قبيح أو جميل، خطأ أو صواب، صالح أو غير صالح، يستلزم كذلك مقاييس للقبح والجمال، وللخطأ والصواب، وللصلاح والفساد.

وكذلك الحكم على سلوك الناس وأعمالهم بالخير والشر، يستلزم وجود نوع من المقاييس يعيننا على صحة الحكم وتقدير العمل، وقيمة العامل فأي مقياس نتخذ لذلك؟

ويجب أن تعرف أولاً أن المقاييس نوعان، فهناك مقاييس مادية محسوسة، وهناك مقاييس أدبية معنوية غير محسوسة. ولا شك أنك تدرك بأن مقاييس الحكم الأخلاقي من النوع الثاني، ولذلك اختلف فيها الناس.

واختلفت المقاييس الأخلاقية باختلاف العصور وتنوع البيئات، وحسب تقادم الشعوب وتأخرها.

والمقاييس الأخلاقية نوعان:

1- مقاييس خارجية: كالعرف والقانون.

2- مقاييس باطنية: كضمير الإنسان أو كعقله وتفكيره.

وقد تكون المقاييس غاية السعادة الشخصية، أو كالسعادة العامة، وقد تكون قانوناً كقانون الدولة، أو القانون الأخلاقي، أو العرف والعادة. ويكفينا هنا أن نبحث في العرف والسعادة العامة.

1 – العرف

العرف هو مجموع العادات المختلفة التي تعارف عليها الناس كالمأكل والملبس والسلوك، مما اتفق الناس على اتباعه، فالعرف هو « عادة الأمة » ، ولكل أمة عرفها، وتقاليدها وعاداتها في السلوك والأعمال، وقد نشأت هذه وتكونت في عصور طويلة، ثم انتشرت ورسخت في النفوس حتى أصبح الأخذ بها واجباً على كل فرد، وإلا عرض نفسه لسخط الشعب وعقابه الشديد. ولكل أمة عرف خاص ومن الصعب الخروج على المألوف من العرف: في الملبس، والمأكل، ونظام الأفراح والمآتم.

وقد عاون على توطيد العرف، وتقوية سلطانه عدة عوامل، بعضها ناحية الفرد، وبعضها من ناحية المجتمع.

فمن ناحية الفرد توجد ميول فطرية فيه:

1- التقليد وهو ميل قوي وجد في الإنسان بالطبع والفطرة، فالعرف يدفع الفرد إلى أن يعمل كما يعمل الناس وأن يقلدهم في حركتهم ونظام مأكلهم وملبسهم حتى يكون مساوياً لهم، بادياً بمظهرهم.

2- الميل إلى المدح والنفور من الذم، فالمرء يتألم من ذم الناس إياه، ويرتاح لمدحهم، لأن ذلك يشعره بأنه ليس كأحدهم فحسب، بل هو من الممتازين فيهم، المشار بالبنان إليهم، فيعتز بنفسه ويفتخر.

3- ميل الأفراد إلى الاندماج في الجماعة، فالإنساني مدني بطبعه، أي إنه يحب الاجتماع ببني جنسه، ويأنس بوجوده بينهم، ويستشعر الوحشة والألم لبعده عنهم، وهذا يدفعه إلى أن يعمل على أن يكون مثلهم لا يشذ عنهم في عادة أو عرف، أو سلوك يجب عليه سخطهم وغضبهم.

أما من ناحية المجتمع فيعين على توطيد العرف عدة أمور منها: (1) التربية والتعليم (2) الرأي العام (3) الحفلات والشعائر القومية والدينية. والرأي العام يعين على تثبيت العرف والعادات القومية باستحسانه أفعال الإنسان التي توافقه وترضيه، واستهجانه لمن يشذ عنه وتخرج عليه، فالناس يمدحون عادة من يساير العرف، ويسخرون من مخالفه، ويستعين المجتمع على بلوغ هذه الغاية بإقامة الشعائر والحفلات الشعبية، والمواسم والأعياد القومية وغيرها، فكأن الفرد والمجتمع معاً يشتركان في تثبيت قواعد العرف حتى تصبح مقياساً للخير والشر، وأساساً لاستحسان سلوك الناس وأعمالهم أو استهجانها واستنكارها.

وقديماً كان العرف وحده هو القياس الوحيد الذي يقيسون به العمل والسلوك، وكان العرف بمثابة القانون وكانت له قوة القانون، وأصبح مقياس الخير والشر عند هؤلاء القوم هو العرف، وبه يصدرون أحكامهم على سلوك الناس وأعمالهم.

ولكن لما تطورت المجتمعات وارتقى الناس تبين أن العرف لا يصلح أن يكون مقياساً صحيحاً لأسباب عدة:

1- فكثير من أوامره غير معقول.
2- وكثير مما يتطلبه العرف مضر.
3- العرف متعلق ببيئة خاصة وزمان معين وأمة معينة.
4- العرف لا يثبت على حال واحدة، فهو متغير متبدل تبعاً لسنة الرقي.
5- الاستمساك بالعرف يؤدي إلى جمود المجتمع وركوده.

السعادة:

السعادة هي الغاية الأخيرة للحياة، وهي التي تحرك الناس للعمل وبذل الجهد فيه. فكل إنسان يطلب بعمله السعادة، فالطالب يتعلم، والبخيل يجمع المال، والرجل يتزوج ويكون أسرة، والعالم يؤلف، والكاتب يكتب، والقاضي يحكم بين الناس، وكل من هؤلاء يرمي من أعماله إلى غاية أخيرة، هي تحصيل السعادة.

ومفهوم السعادة عند غالبية الناس هي تحصيل اللذة وتجنب الألم، فكل ما فيه لذة لنا خير، وكل ما فيه ألم هو شر، وكل إنسان في عمله إنما يطلب أحد شيئين، تحصيل لذة أو تجنب ألم، ولا يمكن أن يخرج ما يعمله عن هذين الغرضين. لكن هناك سؤالاً يحدد جوابه غاية السعادة: هل ينبغي أن يطلب الإنسان أكبر سعادة لشخصه هو؟ أم ينبغي أن يطلب

السعادة للمجتمع الذي يعيش فيه؟ وعلى هذا انقسم أنصار مذهب السعادة إلى فريقين: فريق يرى أن السعادة هي سعادة الفرد نفسه، وفريق آخر يرى أن السعادة المقصودة هي سعادة الناس عامة.

ا- مذهب السعادة الشخصية

يقول أنصار هذا المذهب بأنه ينبغي للإنسان أن يطلب أكبر لذة لشخصه، وأن يوجه أعماله للحصول عليها، فإذا تردد إنسان بين عملين، أو تردد في عمل معين، أيعمله أم يتركه، فليعتبر ما فيه من اللذائذ والآلام لشخصه ويوازن بينها، فما رجحت لذائذه فخير يجمل فعله، وما رجحت

آلامه فشر يتعين تركه، وما تساوت فيه اللذائذ والالام، كان فيه مخيراً، وعلى هذ المذهب كانت الفضائل فضائل لأنها تحقق لذة كبيرة .ولكن من الخطأ أن نأخذ بهذا المذهب، ونتخذ اللذة الشخصية معياراً نتعرف به الخير والشر، فعيوب ذلك كثيرة:

1- ليست اللذة خيراً على الدوام، فلذة الإفراط في المأكل والمشرب تفضي في النهاية إلى المرض، كما أن الشر ليس ألماً في كل الأحوال، فالألم الناشئ من بتر عضو متسمم يجلب مسيرة الاحتفاظ بالحياة.
2- اللذة الشخصية تجعل الكثير من الفضائل عبثاً لا قيمة له ولا مسوغ لوجوده، فالتضحية في سبيل الوطن أمر لا معنى له على أساس هذا المذهب لأنها لا تحقق لذة شخصية.

ب – مذهب السعادة العامة

يقول هذا المذهب أنه لا يجوز أن تكون السعادة الشخصية مطلب الإنسان في الحياة، وإنما يجب أن يكون مطلبه سعادة الناس جميعاً، فعليه أن يطلب سعادة المجتمع كله لا سعادة الفرد وحده، فعندما تريد الحكم على عمل ما بأنه خير أو شر، يجب أن تنظر فيما ينتجه هذا العمل من السعادة أو الشقاء لكل الناس، ثم توازن بين ما ينتجه من الآلام، وما يحدثه من اللذات، فإن رجحت لذاته آلامه فخير، وإن رجحت آلامه لذاته فشر.

وهذا المذهب من أكثر المذاهب انتشاراً في العصور الحديثة، فهو أرقي بلا شك من مذهب السعادة والشخصية، ولكن على نبالة هذا المذهب وكثرة انتشاره وجه إليه كثير من النقد يتجلى في النقاط الاتية:

1. جعل اللذة هي الغاية النهائية للنشاط الإنساني كله، يحط من شرف الإنسان وقيمته.
2. ليست السعادة العامة مقياساً صحيحاً للحكم الأخلاقي، فإنه من العسير تعيين مقدار السعادة الي تنتج من عمل معين.
3. وزيادة على ذلك، فالناس يختلفون فيما يعدونه لذة لهم وسعادة، فسعادة الفقير تكون في أمور تختلف كل الاختلاف عما يجد الغني سعادته ولذته فيه، ولذة الكهل في ميله إلى الهدوء، ورؤية أهله

حوله يتمتعون بالسعادة، تختلف عن لذة الغني في مرحه. والمتعلم قد يرى لذته في المطالعة والتفكير، والفنان يراها في الرسم والتصوير.

4. ومن العسير على الإنسان أن يتتبع كل اللذائذ، وكل الأضرار التي تنجم عن عمل ما ويوازن بين بعضها البعض، ليتبين مدى ما فيها من سعادة أو مضرة للجنس كله.

مصدر الدراسة:

كتاب: " الفكر الفلسفي والاجتماعي" لوهيب أسطاسي جرجس؛

(الصفحات: 145-177).

/IhyaeForum

جميـع الحقوق محفوظة © 2019